سُورَةُ الشَّمْسِ

عرض ودراسة

أقسم الله فى هذه السورة القصيرة بأقسام متوالية : بالشمس وضُحاها ، وبالقمر ، وبالنهار ، وبالليل ، وبالسماء ، وبالأرض ، وبالنفس واستعدادها ، دالاً بذلك على قدرته وحكمته ، ومرغباً فى طاعته ومنفِّرًا من معصيته ، ومنذرًا أهل مكة من الكفار والمشركين أن يصيبهم إن تمادوا فى الكفر والعصيان ما أصاب ثمود قوم صالح عليه السلام حين خالفوا عن أمره . فعقروا الناقة وكذبوه ، فأنزل الله بهم الهلاك والدمار عقاباً ونكالا .

(والشمْسِ وَضُحَاهَا) :

لعل أروع ما لفت الإنسان ويلفته على توالى العصور موكب الشمس وهى تبدو من الأفق فى مطلع النهار ، وتمضى فى الصعود إلى وسط السماء ، وكلما تعالت ازدادت حرارتها ، حتى إذا كان الضحى زاغ البصر من كثرة ما ترسل من أضواء ، أضواء تحيط بكل شىء ، كأنما تريد أن تشعل الحياة إشعالا لا يخمد فى كل ما تقع عليه . وهى هناك فى السماء تتراءى فى جلال . وكأنما ألهم أجدادنا الأولون مالها من تأثير فى حياتهم ، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفون عنها ما نعرفه الآن من أنها مصدر الحياة فى الأرض وكل ظواهرها الطبيعية بفضل طاقاتها الحرارية التى تبعث الحياة فى كل الكائنات الأرضية والتى تُعد القوى المائية والأمطار والأنهار ، والتى أتاحت وتتيح لنا جميع موارد الطاقة ذرية وغير ذرية . وكل ذلك لم يكن يعرفه الأجداد المتعمقون فى القدم ، ولكنهم أحسوا إحساساً دقيقاً بخطرها ، وراعهم موكبها

اليومى وأنه لولا بزوغها كل صباح لأظلمت الدنيا ولظلت فى كسوف مستمر ، وكأنما شعروا أنها صاحبة السلطان الأول فى الوجود ، إذ توقد الكون بمصابيح أشعتها ، وكل شىء يسبح من الشروق إلى الغروب فى أضوائها التى تتولد كل يوم وتتلألأ والتى ترسل الحياة فى كل كائن من كائنات الوجود . لذلك كله قدّسوها وعبدوها وجعلوها أكبر معبوداتهم لا فى مصر وحدها بل فى جزيرة العرب وفى غيرها ، إنها آية كبرى من آيات الكون هى وضياؤها الذى يبلغ الأوج منذ الضحى وأنواره القوية . والله جَلَّ ثناؤه يقسم بها وبضحاها أو ضوئها حين يسطع نوره ويُلْهب كل ما يمر به ، ليلفت إلى بهائها وروعة صنعها وصنع ما ترسله من حرارة وأشعة تبثّان الحياة فى الوجود ، إنه صنع يشهد بقدرته الخارقة وما يرافقها من دقة وبصر بمواقع الأشياء ، بحيث لا يبدو فى صنعه لتلك الآية الكبرى أى خلل ، فهى تبزغ وتغرب بميقات ، وهى ترسل أشعتها وحرارتها بمقدار ، أليس فى ذلك ما يدل أكبر الدلالة على أنه واحد أحد لا شريك له ، يفعل ما يشاء كما يشاء على مقتضى حكمة باهرة ، دون أن يمسه نصب أو تعب أو يدركه قصور أوعجز فى نقض أو إبرام . إنه القوى القادر الذى لا نهاية لقدرته والذى له ملك السموات والأرض ، وكل ما فيهما يصرّفه ، حسب حكمته فى خلقه ، وحسب ما يريده من مصلحة ومنفعة . ويكرر الله فى القرآن مرارًا أنه سخر للإنسان الشمس كى ينتفع بها أكبر نفع ، ينتفع بميقاتها اليومى وضوئها وحرارتها وينتفع بمنازلها وما ينشأ عنها من فصول لها أثر بعيد فى حياته وكل ما يتصل بها من زروعه وغير زروعه . وهو يقسم بها ليجذبه من حضيض الكفر والعصيان إلى ساحة الإيمان والعرفان بأنه مدبر الكون المتفضل بكل ما فيه من نعم

وآلاء ينعم بها الإنسان صباح مساء ، وجدير به أن يعبده . إنه الإله الحق رب العالمين العزيز بسلطانه لا ينازعه أحد ولا يمانعه ، الحكيم بتدبيره لا يشوبه أى نقص ولا يداخله أى خلل ، له التصرف الكلى فى الوجود جميعه شمساً وغير شمس وضحى وغير ضحى ، وله نفوذ الأمر فى جميع كائناته من الكواكب وغير الكواكب ومما نعلم ومما لا نعلم ، تنزهت ذاته وتقدست أفعاله وصفاته .

(وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) :

القمر هو الكوكب الباهر الثانى الذى لفت الإنسان منذ القدم ، إذ رآه حين يُرْخى الظلام سدوله على التلال والوديان والجبال والأشجار والينابيع والآبار والأنهار وجميع المسالك والدروب يرسل نوره على جميع البقاع ، فإذا الحياة التى انطفأت فى كل مكان بانطفاء الشمس قد استيقظت من سُباتها ولم يعد يَرين عليها الصمت والسكون والركود ، فقد دبَّت الحركة فى الوجود ، ولم يعد الإنسان أسير الظلام ولا عاد يلابسه ويلابس كل ما حوله فقد طرده نور القمر . وهو نور لطيف لا تمازجه حرارة كحرارة ضوء الشمس ، وكأنه رحمة كبرى تبزغ فى السماء لإنقاذ الإنسان من جنود الظلام ووحشته ومخاوفه ، ولذلك طالما ناغاه الإنسان على نحو ما يناغى الطفل المصباح ، لما له من أثر فى تحريك نفسه وبعث خواطره ولما يجد له من أنس ومسرة . وكان طبيعيًّا لأجدادنا الأولين فى بدء الحياة الإنسانية أن يعبدوه ويقدسوه كما قدسوا الشمس وعبدوها إنه وحده الذى يعتلى عرش الليل كما تعتلى الشمس عرش النهار ، يستقلّ بسلطنة الليل ، وكأن الكون يرى وجهه فى مرآته ،

وكل شيء فيه يكتسى بهاء وجمالا : التلال والكثبان والجبال والوديان والكلأ والأشجار والمياه ، والنجوم تلمع ، وهو يبرز فى جلاله ، وقد تبدد كل ظلام وتبددت كل وحشة ، والإنسان الذى نبت من الأرض المظلمة ينظر إليه فى خشوع متأملا فى أشعته الفضية . والله جَلَّ ثناؤه يقسم به ليلفت إلى تلك الآية الرائعة من آيات خلقه المحكم ، وكأنه سَفِيرٌ له عندهم ، سفير يحمل إليهم رحمته بهم ورعايته لهم آناء الليل ، رعاية تحتضنهم فيها أشعة القمر ، تغسل من عيونهم غبار الوحشة والظلمة ، وتنير لهم كل المسالك والطرق ، والأرض تستقبلها هانئة بها فاتحة لها صدرها ، تريد أن تنبتّ فى كل ذراتها ، حتى تتجلّى فى نورها وتتحلّى بلونها. وهو الله مفيض النعم على الإنسان ، خلقه من التراب المظلم ، وأنار له الوجود وجعله كله نورًا ، أما فى النهار فأضواء الشمس تغمر كل مكان نورًا وحرارة تكتنُّ فيها الحياة ، وأما فى الليل فيبدو القمر بأنواره التى نفَحتها فيه الشمس بما تعكسه عليه من أشعتها ، وهو معنى قوله عَزَّ ذكره : (إِذَا تَلاَهَا) أى تلا الشمس وتبعها ، فهو تابع لها يقتبس من نورها ، وإلى ذلك أشارت آية سورة يونس : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَاب). والضياء أعلى مرتبة من النور ، وكأن نور القمر يتجلّى فيه ضياء الشمس ، فهو مظهر لتجلّيه ، ولذلك كان دونه فى الاسم وفى الحقيقة . ويذكر الله أنه قدر مسيرة القمر فى ليالى الشهر التى يظهر فيها قليلا أو كثيرًا ، أو بعبارة أخرى فى منازله الثمانية والعشرين ، لتُعْرَفَ بذلك الشهور والسنون ، وليعرف الحساب بالأوقات من الشهور والأسابيع والأيام حتى تنتظم مصالح الناس فى سائر شئونهم الدينية والمعاشية . ويذكر الله مرارًا أنه سخر القمر كما سخر الشمس

للإنسان حتى ينتفع بهما فى حياته ما استطاع إلى الانتفاع سبيلا ، إنه لم يخلقهما لكى يعبدهما من دونه ، بل ليعبد صانعهما العظيم وليستقر فى نفسه شكره على ما أنعم به عليه من ضياء الشمس ونور القمر ، فتلك آيتان من آيات خلقه البديع دالّتان أكبر الدلالة على كمال قدرته وعظيم تدبيره وأنه إذا خلق شيئاً أقامه فى أدق تقدير له ، ثم أجراه إلى غايته . وقد أجرى القمر والشمس ليضىء بهما الكون ليلا ونهارًا ، لا لكى يعبدهما الإنسان أو يعبد غيرهما من الكواكب ، وإنما لكى يعرف فى أعماقه نعم الله عليه . ويؤمن بأن كل تلك الكواكب السماوية تخضع لإله أعظم منها شأناً ، وفى ذلك يقول فى سورة فُصِّلَتْ : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ فهو الذى وهب لهما الضياء والنور ، ولو شاء لطمس النور ومحا الضياء وأظلم الوجود ظلاماً لا نهاية له. إنه هو وحده الخليق بالسجود والعبادة وأن تعنو له كل الوجوه .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ :

النهار هو زمان ضياء الشمس . وقيل أوله بزوغها من الأفق ، والصحيح أنه من طلوع الفجر ومبادئ ضوئها فيه ، أما آخره فغروبها ، وهو وقت الصيام فى رمضان من تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر أو بعبارة أخرى من تبين بياض النهار من سواد الليل . والله عَزّ ثناؤه يقسم بالنهار حين يجلو الشمس فى ضيائها الكامل ، كما يقسم بالليل حين يسترها بظلمته ، فيغيب عن الوجود موكب أضوائها ، كما يغيب القمر ومحفل أنواره ، ويعم الركود والسكون ويخلد الوجود إلى الهدوء ، وكأنما تبطل الحركة حتى

يفضى الإنسان إلى الاستجمام طلباً للراحة ، إذ قسَم الله له حياته بين الحركة والسكون أو بين العمل والجمَام ، إذ لو كانت حياته عملا خالصاً لانتقضت قواه وما استطاع أن يمضى فى حياته وعمله وما تقتضيه شئون عيشه من حركة . ومن برِّ الله به ورحمته أن جعل له النهار معاشاً والليل سكناً ، ولو كانت حياته نهارًا محضاً لضعفت عاجلاً مُنَّتُه وقُوَّتُه ولما أتيح له من الاستطاعة والطاقة ما مكَّنه من الرقى بالحياة الإنسانية وإحداث ما هيَّأ لها من حضارة ومدنية ، ولو كانت حياته ليلا صِرْفاً ما تبين له شىء فى الوجود ولبطلت حركته وبطلت معها حياته ، وأصبح موجودًا كمعدوم وحَيًّا كميت ، وفى ذلك يقول جَلَّ شأنه فى سورة القَصص : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غيْرُ اللهِ يأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُون قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيه أَفَلاَ تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِه جعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهار لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، فالله تعالى شأنه جعل للإنسان النهار ليلتمس فيه معاشه مبتغياً من فضل ربه ما يحفظ له وجوده ويصونه ، بل ما يدفعه إلى الرقى والنهوض ، مسخرًا له كل شىء فى الوجود من الكواكب وغير الكواكب ، كى يرقى بحياته مراتب الرقى والكمال الإنسانيين ، وكى يصعد بها إلى منازل السمو التى يريدها . ولما كان ذلك يحتاج منه إلى تعب وعناء وكان لا بد للمتعب من سكون تبطل فيه حركته ويكون راحة له وجماماً من تعبه وعنائه خلق الله له الليل حتى يريح جسده فيه من الحركة ، وجعل له النوم فيه ، حتى يسكن جسده سكوناً تامًّا وتسكن روحه ويسكن فكره ، فإذا كل ما فيه ظاهرًا وباطناً قد سكنت

حركته ، حتى ليغيب عن كل ما حوله ، بل حتى ليغيب عما يمسك بيده ، فإذا كان فيها شيء ونام استرخت يده وانفتحت أصابعه وبَايَنَها ما كانت تمسكه . وتتضح حاجة الإنسان إلى النوم إذا سهر ليلة فإنه فى الليلة الثانية يغلبه النوم ويقهره ولا يستطيع مقاومته ، مما يدل على حاجة الإنسان إليه بأشد مما يحتاج إلى الدواء لعلله وأمراضه . وفى ذلك ما يصوِّر نعمة الله على الإنسان إذ جعل له النهار للحركة وطلب العيش والليلَ للراحة والنوم ، وجعلهما متعاقبين ليتوالى العمل والراحة ، أما العمل فيعود إليه الإنسان نشيطاً بما حقق لنفسه من استجمام كامل ، وأما الراحة فإنما يتكامل الشعور بها بعد العمل الشاق ، ومثلها النوم فإنه إنما يلذ صاحبه بعد التعب والضَّنَى ، إذ يستغرق فيه استغراقاً تامًّا ويسترخى جسده استرخاء كاملاً ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النَّبأ : (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً) أى راحة لأبدانكم . وقيل السبات الموت ، سَمَّى استرخاء البدن وفقدانه الحركة موتاً ، وتصوِّر ذلك آية سورة الزُّمَر فى أوضح عبارة ، وهى قوله تعالى ذكره : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِى لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ ويُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أَجلٍ مُسَمًّى) سَمَّى النوم موتاً لفقدان الإنسان الحسَّ فيه وعجزه عن الإدراك والحركة والتصرف ، وهى نعمة أرادها له ، ليأخذ حاجته من الراحة والاستجمام ، وحرى به أن يعرف قدرها وقدر هذا الصانع العظيم الذى خلق الشمس والقمر وخلق الليل والنهار وجعلهما له راحة ومعاشاً.

(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) :

(ما) فى الآيتين مصدرية أى والسماء وبنائها والأرض وطَحْوها ، وقيل إنها

بمعنى مَن أى والسماء ومن بناها أو شادها والأرض ومَنْ طحاها أو مهَّدها ، والرأى الأول أوضح . وقد أقسم الله بالسماء وما أودع فيها من نظام عبَّر عنه بالبناء ، إذ رفعها على قواعد منها الجاذبية المعروفة فى المجموعة الشمسية ، ووراء هذه القاعدة قواعد أخرى كثيرة لا نعرفها ولا يحيط بها علمنا . وقد خلق فيها الشمس والقمر والنجوم السيارة والكواكب المشرقة والغاربة . وتُطْلق السماء على كل ما علا الأرض ، ولذلك كانت تُدْعى مَوْطن السحاب والأمطار كما قال تعالى فى سورة البقرة : (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) وهو رزق تختلف ثماره وألوانه وأنواعه . وتتبع السماء الرياحُ حارة وباردة ولينة وعاصفة وجالبة للمطر والخير ومهلكة ، كما يتبعها الطير المسخَّر فى أجوائها ، ما يمسكه إلا الله ، وتتبعها أيضاً الثلوج والصواعق . والسماء بكل ما فيها من قريب وبعيد ومن كواكب ونجوم بناءٌ عجيبٌ ، ويكفى أن نتدبر فى مجموعتنا الشمسية وما بها من شمس وقمر وكواكب لنحسَّ عجائب خلق الله فى الكون وأنه لا بد له من بانٍ يبنيه وصانع يقيمه . وإذا نحن عَبَرْنا مجموعتنا إلى مجاميع الكواكب الأخرى ونجومها ملأنا العجب ، ويكفى أن نعرف أن عدد النجوم يتجاوز لا الملايين وإنما البلايين ، وأن منها ما تبلغ سرعة ضوئه نحو مائتى ألف ميل وأنه لا يصل إلينا إلا بعد عدد من السنين يتفاوت قلة وكثرة . وكل هذه النجوم والكواكب تسير بحركات منتظمة فى الفضاء الكونى الشامل لا يمسكها سوى الله ، فلا عمد ولا علائق ، وإنما قدرة الله وحدها ، وهى قدرة تسخِّر كل ما فى السماء لنا ، فالإنسان مركز الكون وكل ما فيه مخلوق من أجله ، ويقرر القرآن ذلك مرارًا وتكرارًا كما فى آية الجاثية : (وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمٰوٰتِ

وما فى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) فكل ما فى السموات مسخر للإنسان كى يفيد منه أكبر فائدة . وبالمثل الأرض فقد طحاها الله أو مهّدها ووطّأها للإنسان كما قال فى سورة البقرة (فِراشًا) يفترشها ويستقر عليها . وكأنها بيته ، بل كأنها نفس فراشه الذى يضطجع عليه ويجد فيه راحته . وما ليس مهيّأ منها لأول الأمر كى يكون فراشاً يستطيع أن يجعله فراشاً كالكوخ يتخذه فوق الجبل وكالفُلْك يتخذها فى البحر . وقد أمده الله فى الأرض بالمياه والينابيع والأنهار والمعادن الصلبة والسائلة والجواهر من الذهب والفضة كما أمده بالحيوانات والطيور والنباتات والأشجار والزروع ، وجعل له الزمان أربعة فصول . ولكل فصل جوُّه وثماره ، ومع الأمطار والأنهار تخرج الأرض غروسها وأزهارها وثمارها وتتوالد الحيوانات وتكثر الألبان . وتأخذ الثمار والحبوب فى النضج وتيبس ثم تجف . ويحصد الحاصد الحبوب . ويقطف القاطف الثمار والأعناب . وبينما الجو فى الربيع معتدل رطب إذا هو فى الصيف حار يابس ، وبينما هو فى الخريف معتدل جاف إذا هو فى الشتاء بارد رطب ، إذ تكثر الأمطار وقد تسقط فى بعض البقاع الثلوج ، وتهمد الأرض كالجسد يطلب الراحة والاستجمام . فلا تعود إلى الحركة والعمل والنشاط إلا فى الربيع بفضل اعتدال جوه وما يصحبه من حرارة تعدّ للحب فى باطن الأرض أن ينشقّ وأن يغذوه الترب بأثدائه حتى يستطيل نباته ، وعلى هذه الشاكلة تُعَدُّ الأشجار للثمار والغروس للأزهار . وفوق ذلك كله يد الله وقدرته التى خلقت اليُبْس والرطوبة والحرارة والبرودة وعناصر الأرض كلها من التراب والماء والنار والهواء ، كما خلقت العذوبة والملوحة والطعوم الغاذية والرياحين الملذة والأصوات المطربة والألوان الممتعة . كل ذلك جعله الله للإنسان فى الأرض بالإضافة إلى

ما جعله له فى السماء ، مما ينبغى أن يدفعه دفعاً نحو عبادته . شكرًا لنعمه الظاهرة فى كل ما تقع عليه عينه مما لا يستطيع له وصفاً ولا إحصاءً وعَدًّا .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) :

مَرَّ بنا فى سورة التكوير أن النفس هى الروح كما تشهد بذلك الأحاديث النبوية . وقد تطلق فى الذكر الحكيم على ما يشمل الروح والجسد معاً كما جاء فى سورة النساء : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) إذ أجمع أهل التأويل على أن المراد بالآية نهى الناس عن أن يقتل بعضهم بعضاً ، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآية فالنفس فيها تشمل الروح التى تسرى فى البدن سريان رائحة الورد فى مائه وتحفظ عليه حياته حتى إذا فارقته أصبح جمادًا فاقد الحس والحركة وكل ما يتصل بأسباب الحياة . كما تشمل البدن الذى تستخدمه فى حياتها وأعضاءه وجوارحه وقواه الظاهرة والباطنة . (وَمَا سَوَّاهَا) أى تسويتها فى الخلق وتعديل أعضائها وجوارحها وقُواها كما قال جَلَّ شأنه فى سورة الانفطار : (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) أى ما خدعك وحملك على عصيانه وكفران نعمته واقتراف مالا يليق بشأنه وقد تفضل عليك فضلاً كبيرًا فضل المربى الراعى الذى ينشِّئ ما يربِّيه خير تنشئة ، وقد خلقك وأحسن خلقك وتدبيرك ، إذ دَبَّر خلق روحك وخلق جسدك وخلق أعضائك وخَلْق قُواك تدبيرًا محكماً . سَدَّد فيه روحك لكى تستقبل الهدى ولا تنحرف عن طريقه إلا إذا اعترضها هوى أو وسوس لها شيطان ، وجعل لها قوة على الصعود فى مراتب هذا الهدى منزلة بعد منزلة ، بحيث تستطيع الحصول على أعلى منازل الكمال الروحى ،

وسدَّد أيضاً البدن بأن جعل أعضاءه وجوارحه سويَّةً مستعدة أتم استعداد لأداء منافعها بحيث يؤدى كل عضو وكل جارحة منفعته التى خُلق لأدائها كالتكلم للسان والبصر للعين والسمع للأذن والشم للأنف واللمس والبطش لليد والمشى للقدم . فكل شىء فى الإنسان جسدًا وروحاً أُعطى ما تتم به وظيفته على خير وجه وفق الحكمة الربانية فى الخلق والتسوية سواء فى روحه وطباعه أو فى عقله وفكره وعلمه وفطنته أو فى حَوَاسِّه ومزاجه ولذَّته وألمه أو فى انتصاب قامته وتعادل أعضائه وجوارحه وحسن صورته المادية والمعنوية . ولذلك جاء أن الله خلق الإنسان على صورته أى أنه خلقه فى أتم صورة إذ أعطاه حسن الخلقة ، وهيأه ليكون حسن الطباع وليكون كاملاً فى حياته وعلمه وإرادته ، وهداه إلى ما فيه فلاحه وسعادته فى دنياه وآخرته ، بحيث يستطيع الصعود من عالمه الدنيوى إلى أعلى المراتب فى العالم الروحى . وكل ذلك بما أودع الله فى روح الإنسان وقواه الظاهرة والمستترة وملكاته العقلية من مدَّخرات لا يُعْرَف لها حَدٌّ ولا يحيط بها وصف ، وهى مدَّخرات تشهد بأن صانعاً عظيماً وراء هذا الخَلْق العجيب للنفس ، والله يقسم بها وبخلقها ليلفت إلى أنه هو الذى أبدعها إبداعاً يشهد بربوبيته ، وأنه خلقها وَهيَّأ لها من الاستعداد ما يجعلها تختار طريق الهدى والرشاد .

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) :

هذه الآية معطوفة على الفعل السابق لها مباشرة ، أى ونفس وتسويتها فإلهامها فجورها وتقواها . والضمير المستتر فى الفعل ألهم يعود على الله بدلالة السياق. وأصل معنى الإلهام إلقاء الشىء فى الروع والقلب ، والمراد فى الآية التبيين أى تبيين طريق الفجور وطريق التقوى ، وقيل المراد إفهام النفس حالهما

من القبح والحسن وما يؤدى إليه كل منهما ، ومكّنها من اختيار أيهما شاءت . وقال بعض أهل التأويل الإلهام لا يكون إلا فى الخير ، فلا يقال فى الشر إنه إلهام من الله . أما إلهام النفس الفجور فى الآية فالمراد أنه عرفها به لتجتنبه . وقيل إلهام النفس فجورها لتعلمه ولا تعمل به ، وإلهامها تقواها لتعلمه وتعمل به ، فهو فى الفجور إلهام علم لا إلهام عمل ، إذ الله كما قال فى سورة الأعراف : (لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) وكما لا يأمر بها لا يلهمها أحد . وكأن هذه الآية كآية سورة البلد السابقة لتلك السورة : (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) أى طريق الخير والشر ، أوضحناهما له . وقال الشيخ الجليل محمد عبده فى معنى الآية إن الله وهب النفس العقل الذى يميز بين الخير والشر ، والفجور إتيان ما ينتهى بالنفس إلى الخسران والهلكة والتقوى إتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة . وواضح أن الآية لا يُفْهم منها أن سلوك طريق الخير وطريق الشر من عمل الله وأنه مكتوب على الإنسان فى ألواح القضاء ولا مفرّ له منه خلافاً لبعض من حاولوا أن يستنبطوا ذلك منها ، وقد مضوا يسندون كلامهم بما رُوِىَ عن الرسول عليه السلام من أنه كان إذا قرأ الآية قال : « اللَّهُمَّ آتِ نفسى تَقْواها أنت وليُّها ومولاها وأنت خير من زَكَّاها » وأيضاً ما رُوِىَ من أن رجلين من مُزَيْنَة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسولَ الله أرأيت ما يعمل الناسُ اليوم ويكدحون فيه أشىءٌ قُضِى عليهم ومضى فيهم من قَدَرٍ سابقٍ أو فيما يُسْتَقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال لا بل شىء قُضِى عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ : (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وَتَقْوَاها) . وتزكية الله للنفس فى الحديث الأول وما سبق به القدر فى الحديث الثانى إنما يراد بهما إعداد

الإنسان لذلك وتهيئته لا أنَّ هدى الإنسان وضلاله من عمل الله ، وإلا فكيف يقيم الحجة عليه حين يفجر ؟ وكيف يلزمه مسئوليته إزاء ما يقترفه ؟ ومر بنا فى سورة التكوير أن هناك دائرتين : دائرة كبرى تتعلق بها الأسباب العامة للإنسان وحياته الإنسانية ، وهى خاصة بالله جَلَّ جلاله ، ودائرة صغرى خاصة بكل فرد تتعلق بها أفعاله واعتقاداته ، ولا تعارض بين الدائرتين ، فالله وضع الأسباب الكلية للفجور والتقوى وزكاة النفس وطُهْرها ، أما اختيار أحد الطريقين والمضى فيه فمن عمل الإنسان ، ولذلك كان ، إذا ارتكب كفرًا أو عصياناً أو فجورًا ، مسئولاً عما ارتكب ، وحق عليه العقاب بمقدار ذنبه أو ذنوبه ، وإذا اختار طريق الهدى فأطاع ربه واتقاه وعمل صالحاً حَقَّ له الثواب بمقدار عمله وطاعته وتقواه .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

التزكية أصلها من زكا الزرع والمال إذا كثر وزاد . وسُمِّى إخراج المال زكاة لما فيه من رجاء الزيادة والبركة أو لأنه يزكّى النفس وينمّيها بالخيرات والبركات . وقيل أصل التزكية الثناء الجميل ، ومنه تزكية القاضى الشاهد ، وقيل بل أصل معنى التزكية التطهير . والفلاح الظفر وإدراك البغية ، وهو ضربان دنيوى وأخروى ، فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياة والأخروى الظفر بنعيم الجنان . وهو يقتضى الظفر على النفس فلا يتابع الإنسان هواه ، والظفر على الدنيا فلا تطغيه ملذاتها ، والظفر على أصدقاء السوء فلا يطيعهم فيما يقترفونه من آثام ، والظفر على الشيطان فلا يستمع إلى وساوسه . وهو ينتهى إلى الفوز بالمراد والنجاة من المكروه .

والمفلح فى الآية هو الفائز بالجنة والناجى من عذاب النار ، وهو المتوجه إلى ربه بالطاعة وبجميع أعماله وأحواله . وهو يزكى نفسه أى ينميها بما يشرق عليها من نور التقوى وبملازمتها للطاعات وعمل الخيرات ، أو هو يطهرها من كل ضروب المعصيات عقيدة وسلوكاً وعملاً وقولا . وقد توالت أقسام سبعة عظيمة على فلاح من زكى نفسه حثًّا على ذلك وترغيباً . والآية بذلك وتاليتها جواب القسم ، وتدخل اللام على قد فى الجواب ، فيقال لقد أفلح ، وكأنها حذفت لطول الأقسام ، فصار طولها عوضاً عنها . وقيل جواب القسم محذوف تقديره لتبعثن . وقال الزمخشرى هو مفهوم من بقية السورة ، وتقديره ليدمدمَنَّ الله على أهل مكة لتكذيبهم الرسول عليه السلام كما دمدم على ثمود لتكذيبهم رسولهم صالحاً . والرأى الأول أكثر ملاءمة لتتابع السياق فى السورة . و (خَابَ) خسر ولم ينل ما ابتغى ، و (دَسَّاها) من الدس ، وأصلها من دَسَّس كما يقال قَصَّيْت أظفارى وأصله قَصَّصت أظفارى ، ومثل قولهم : تقصَّى وتقصَّص . ومعنى التدسيس الإخفاء وكأنه يُخْفى نفسه بالمعاصى . وقال المفسرون : كان أجواد العرب ينزلون الرُّبَى ومرتفعات الأرض ويوقدون النار فى الليل حتى يراهم الطارقون والسائلون فيقصدونهم ، وكان اللئام ينزلون أسافل الأودية ليخفوا أنفسهم عن الطالبين وذوى الحاجة ، فكان يقال للأولين إنهم علوا بأنفسهم وزكَّوها أى رفعوها وشهروها ، وكان يقال للثانين إنهم أخفوا أنفسهم ودسوها . وكذلك التقاة رفعوا نفوسهم وأعلوها وسَمَوْا بها ، والفجار أخفوا أنفسهم وحَطُّوها ودَسُّوها ، فالتقىُّ أظهر نفسه بأعمال البِرِّ والخير ، والفاجر أخفاها بأعمال الفُجْر والكفر ، وكأن الله جَلَّ شأنه خلق النفس المدبرة للبدن مستعدة

قابلة لتكون خيِّرة ولترقى فى مراتب الكمال ، واختلفت النفوس فمنها ما صدر عما أفاضه الله فيها من القوى المستعدة لتلقى الهدى ، ومنها ما أخفى هذه القوى وطمرها فى داخله واستمع إلى دواعى الهوى ، فالأولون أصحاب الفلاح والهدى والتقوى والرشاد ، والأخيرون أصحاب الفجر والفساد والكفر والضلال .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

يدعو القرآن الناس دعوة متكررة للنظر فى ملكوت السموات والأرض من مثل قوله فى سورة آل عمران : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ) وكما جاء فى أقسام هذه السورة ، فهو يدعو دائماً للتفكر والتدبر فى الكون والوجود ليلتفت الإنسان إلى أن للعالم إلٰهاً أحدثه وصانعاً صنعه ، إذ لا بد لكل بناء من بان ، وإلا جاز أن يُحْدث البناء نفسه وهو محال . وبالمثل يدعوه إلى أن يفكر فى خلقه وأطواره وفى نفسه كما قال فى سورة الذاريات : (وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) وكما قال فى هذه السورة : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوّٰاهَا) فقد انتقل فى أطوار من التكوين فى تضاعيف الحمل إلى الولادة إلى الصبا ثم الشباب . وعقله ينمو معه وتنمو أعضاؤه حتى يبلغ أَشُدَّهُ ثم يصبح كهلا ثم يصير شيخاً ، وليس له شأن فى كل ذلك ، بحيث لا يستطيع أن يفارق عهد الشيخوخة والضعف مثلا إلى عهد الشباب والقوة ، أطوارٌ مختلفة لا بد لها من صانع يصنعها وينقلها من طور إلى طور . غير ما مُنحه الإنسان من السمع والبصر والفؤاد ومن الحواس وإدراك المدركات ومن المعرفة وأنواع العلوم إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة الشاهدة بوجود الله مدبر الكون وبوحدانيته وكمال

قدرته . ويدعو القرآن الإنسان إلى أن يتلفت حواليه . فسيجد الأرض تعود إلى الحياة بعد أن كانت مواتاً وبعد أن أصبح زرعها ونباتها هشيماً تذروه الرياح . أليس فى ذلك ما يدل على أنَّ من يعيد للأرض الحياة يستطيع أن يعيد الناس بعد موتهم إلى حياة أعظم وأروع من حياتهم الأولى . ولينظروا ثانية إلى الأرض فيجدوا الله يرسل عليها الأمطار والمياه فتتشقق بالنبات والزروع والأشجار والثمار والحبوب مما فيه قوام الإنسان والحيوان . إن كل هذه الآيات الكونية ترشدنا إلى الإيمان بالله وبقدرته المسيطرة على كل قوة وكل شيء فى الوجود . ويدعو القرآن الناس إلى أن يسيروا فى الأرض ليشاهدوا آثار الهلاك والدمار الذى نزل بالأمم التى كذبت رسُلها ، كما قال تعالى فى سورة غافر : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فقد اقتضت حكمة الله ورعايته للناس من قديم أن يُرْسِل إليهم رسلا منهم مبشرين ومنذرين ليخلصوهم من ظلمات الكفر والضلال وينشروا بينهم نور الهدى والإيمان ويحققوا لهم السعادة فى الدارين ، حتى اختار للناس كافة محمدًا ، لتجد فيه الإنسانية هداها الأخير ، غير أن كثيرين كذبوه ، كما كذب الرسلَ السابقين أقوامهم ، مما جعل الدمار يحيق بهم . والله يقص على رسوله وعلى الناس أخبارهم . ليجد فيها عزاءً له . وليزدجر من يكذبونه فيسارعوا إلى تصديقه والدخول فى دينه الحنيف حتى لا ينزل بهم الدمار والهلاك كما نزل بمن كذبوا الرسل واستهزءوا بهم من الأمم الداثرة . ومن هذه الأمم ثمود قوم صالح عليه السلام ، كانوا يسكنون شمالى الحجاز فى « الحِجْر » المعروفة باسم « مدائن صالح » وفيما

حواليها ، وقد عُرفوا فى العالم القديم منذ القرن السابع قبل الميلاد ؛ والمظنون أنهم ظلوا حتى القرون الأُولى للميلاد . وعثر العلماء فى ديارهم على كثير من النقوش ، وهى مكتوبة بالخط اليمنى الجنوبى المسمى بالمسند ، وتصور طوراً من أطوار اللغة العربية فى عصورها الجاهليه الأُولى . ويشير القرآن إلى ما بلغوه من حضارة إذ اتخذوا لأنفسهم من سهول ديارهم قصوراً ونحتوا من الجبال بيوتاً ، وأرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام ؛ فدعاهم إلى عبادة الله وألا يشركوا به أحداً ، وقال لهم إنه رسول ربهم جاء ليبلغهم رسالته ولينقذهم مما هم فيه من ضلال ووثنية ، وليريهم الطريق الذى يكفل لهم سعادتهم ، فقال له كبراؤهم وطغاتهم أَتَنْهَانَا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ، إننا لفى شك مما تقول وإنك لفى ضلال مبين . ومضوا يحاجّونه ويحاجون مَنْ تبعه من ضعفاء قومه ، وطلبوا منه برهاناً على صدقه فى رسالته وما يقوله عن ربه . وأخذوا يعلنون عُتُوَّهم وطَغْواهم أو طغيانهم ؛ وانبعث وهاج أشقى ثمود وكبيرها فى الطغيان أو مَنْ كُتِبَ عليه الشقاء منهم يحادُّون الله ورسوله ، ويطلبون البينة على صحة رسالته والبرهان .

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا) :

وضَعَ صالح عليه السلام بين أيديهم وتحت أعينهم آيته الدالة على صدقه إذ طلب إليهم أن يعدلوا بين ناقة الله وبين نوقهم ، فيتركوها تأكل فى أرض الله ولا يمسوها بسوء كما يتركوا لها شِرْبها ونصيبها من الماء فلا يطردوها عنه فى نَوْبتها ، وفى ذلك يقول الله على لسانه فى سورة هود : (وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فى أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا

بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) فهى آية له ومعجزة دالة على رسالته إن مَسُّوها بسوء ولم يتركوا لها حظَّها ونصيبها فى الرعى أوشك أن يأخذهم عذاب لا يُبْقِى منهم ولا يَذَرُ. وقال لهم أيضاً إن لها حظًّا من الماء ينبغى أن تتركوه لها كما جاء فى سورة الشعراء : (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ). ومضى صالح ينذرهم ويدعوهم إلى الهدى والإيمان بربهم ، معدِّدًا ما أنعم به عليهم من القصور والحضارة ومن الجنات والحدائق والبساتين ومن الآبار والعيون ، وهو فى أثناء ذلك يحذِّرهم أن يقربوا ناقة الله أو يقربوا سقياها أو يتعرَّضوا لها بسوء ، فيحق عليهم غضب الله وتحلّ عليهم نقمته . وكلما كرر عليهم ذلك لوَّحوا بأيديهم فى وجهه استكبارًا وعتوًّا وطغياناً ، طالبين إليه أن ينزل بهم العذاب الموهوم الذى طالما توعدهم به ، وعبثاً يقول لهم لِمَ ترفضون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب وتعتنقون الكفر الذى يجلب إليكم العقاب هلا تتوبون إلى الله من الكفر والشرك والعصيان لعلكم تدخلون فى رحمته ومغفرته . وهم يقولون له إننا متشائمون بك وبناقتك ، فكُفَّ عنا رسالتك ولا تمادَ فى دعوتك فإننا لن نتبعك أنت ومن آمن بك من السفهاء والضعفاء ، وينصحهم وهم لا ينتصحون بل يمضون فى عنادهم وطغيانهم مكذبين له أشد تكذيب ، حتى ليصمموا على أن يعتدوا على ناقة الله عدواناً أثيماً .

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا) :

كذَّبوا رسول الله صالحاً فى وعيده الذى أنذرهم به ، فعقروا الناقة أى

نحروها غلوًّا فى التكذيب وعُتُوًّا . وكان فى « الحجر » تسعة رجال هم أكثر أهلها بغياً وعدواناً فائتمروا بصالح بعد ذبح الناقة أن يقتلوه ويخفوا قتله ، وهو ما أشار إليه الله فى سورة النَّمْل بقوله : (وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ) . قالوا نخرج عن أهلنا مظهرين السَّفَر ونكون فى غار حتى إذا جَنَّ الليل أتينا صالحاً وأهله فقتلناهم ، وقلنا (مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) ولا حضرناه ولا ندرى من قتله وقتل أهله (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فى إنكارنا لقتله . ويُرْوَى أن الغار سَقَط عليهم فقتلهم . ويقال إن الغار كان قريباً من دار صالح فانحدرت عليهم صخرة أتت عليهم جميعاً . وما مضت على ثمود إلا أيام قليلة حتى دمدم عليهم ربهم بذنبهم . ومعنى دمدم أطبق ، وقيل دَمَّر ، وقيل أهلك باستئصال ، وقيل بل سَوَّى التراب ، يقال دمدم على الميت التراب إذا سَوَّاه عليه ، والتسوية مفهومة من بقية الآية : (فَسَوَّاها) أى سَوَّى عليهم الأرض ، لم يفلت منهم أحد إلا صالحاً ومن آمن معه ، فإنه عرف أن العقاب واقع ، فصاح فى أصحابه ، ونجوا جميعاً . وذكر الله فى سورة الأعراف أنه أخذتهم الرجفة ، كأنما أهلكوا بزلزال عاتٍ أو بركانٍ شديد. وفى سورة هود أنه أخذتهم الصيحة من السماء وهى الصوت الشديد . وفى سورة فُصِّلَتْ : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وهديناهم أى بَيَّنَّا لهم طريق الهدى والضلال ، فآثروا العمى أى الكفر على الهدى ، فشملتهم صاعقة العذاب المهين بما اكتسبوا لأنفسهم من تكذيب صالح وعقرهم الناقة . وكأن العذاب الذى أخذهم كان صواعق

وصيحات ورجفات مهلكة (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين) أى باركين على ركبهم هامدين صرعى لا حراك بهم ، نكالاً لهم ولأمثالهم ممن يكذبون الرسل ، عتوًّا وطغياناً ، فإذا الله يرسل عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما يُرْسل الهلاك والدمار .

(وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا) :

معنى الآية أن الله جَلَّ شأنه دمَّر منازل ثمود وديارهم غير خائف عاقبة الدمدمة وتَبعتها كما يخاف بعض ذوى السلطان حين يحكمون حكماً جائرًا ، إنه لا يفعل إلا العدل والحق ومَنْ يكون فعله قائماً عليهما لا يخاف عاقبة فعل ولا يبالى بعاقبة ما صنع . وقيل الآية متصلة بآية : (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) أى أنه لا يهمه ما يعقب عقره للناقة وما يترتب عليه من صنوف البلاء والعذاب ، مع أن صالحاً عليه السلام أخبرهم بها . وهو رأى بعيد الاحتمال ومثله قول من قال إن الآية متصلة بآية : (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا) أى أن رسول الله لا يخاف عقبى هذا الدمار لأنه كان قد أنذرهم وحذرهم . والخوف المنسوب فى الآية إلى الله إنما يراد به التحرز لا الخوف المقرون بتوقع المكروه . وهو يشير إلى عدالة هذا الحكم ، فقد أرسل لهم صالحاً عليه السلام يهديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدارين ، فبغوا وطغوا وأعلنوا العصيان لربهم ، وطلبوا منه برهاناً على صدقه ، فجاءهم بالناقة ، وطلب منهم ألا يتعرضوا لرعيها وشربها ، كما تقضى العدالة ، فرموا بوعيده عرض الحائط ، وأعلنوا جورهم وظلمهم وحادُّوا الله ورسوله ، فكان لا بد أن ينزل بهم عقابه جزاءً وفاقاً لبغيهم وطغيانهم وعتوهم وما تمادوا فيه من جور وعدوان .